• موسيقى «سلام» تجابه طبول حرب.. وفنون تنشد التواصل مقابل استعداء الآخر

بين الأسرة والمؤسسة التعليمية والإعـــــلام.. من يحمي عرين «الثقافة»؟



رانيا العبدالله:
«الانتصار في المعركة الفكرية هو المفتاح الرئيس للانتصار في معركة طويلة وصعبة ضد المتطرفين، لكنها ضرورية من أجل مستقبل العالم العربي».





رياض نعسان أغا:
«الثقافة العربية لن تنهزم في سورية، وستكون المعول الأقوى في هدم صروح التمترس الواهنة لقوى الإرهاب ودعاة التطرف».



عبدالغفار حسين:
«إذا تم التعاطي مع التربية الثقافية والفنية بشكل علمي ممنهج لدى الناشئة، وبتعاون بين الأسرة والمؤسسة التعليمية، فإننا سنكون بصدد بيئة مستحيلة لنمو الإرهاب».

مي آل خليفة:
«الاهتمام بالثقافة والفنون أضحى قضية وجود، وخياراً حاسماً، ليس في سياق دحر الإرهاب فقط، بل أيضاً من أجل الحفاظ على ملامح الهوية الوطنية».



عطاء الله مهاجراني:
«أحد مكامن قوة الثقافة العربية هو تغلغلها وارتباطها بالتنشئة الاجتماعية للفرد، ومن ثم المجتمع».



عبدالحميد جمعة:
«لا يمكن أن نفصل بين أدوار البيئة الاجتماعية ممثلة في الأسرة، ودور المؤسسة التعليمية، وكذلك الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام المختلفة، في دعم الحراك الثقافي والفني في المجتمع».

محمد عبدالمقصود - دبي

دويّ المدافع والبراميل المتفجرة ورائحة البارود، لم توقف تواتر أنشطة ثقافية وفنية، أقيمت في سورية والعراق واليمن وليبيا، رغم الحالة الأمنية المتدهورة في تلك البلدان، فيما تجاوزت القاهرة وتونس ظرفاً سياسياً استثنائياً، لتشكلا نواة لزخم فعاليات متنوعة طالت مدناً عديدة هناك، وهو الزخم الذي تواصل على نطاق أوسع في مدن عربية أخرى، فيما كان محل مداه الأقصى عاصمة الثقافة الإسلامية الشارقة، التي تتجه إلى اختتام الموسم الثقافي الحالي بنحو 5000 فعالية مختلفة.

وتفوقت الفعاليات، التي احتضنتها الشارقة هذا العام، على عدد الفعاليات التي احتضنتها أي مدينة عربية أخرى، وهو تفوق ترافق أيضاً مع اتجاه تصاعدي سجله حجم الفعاليات التي أقيمت في كل من دبي التي تشهد أجندتها الثقافية هذا الشهر فقط 48 فعالية رئيسة، مسجلة ارتفاعاً عن الفترة ذاتها خلال العام الماضي بنحو 13 فعالية، وكذلك أبوظبي بعدد فعاليات رئيسة يبلغ في ديسمبر الجاري 32 فعالية، بزيادة مقدارها 11 فعالية مختلفة «52,4٪» عن الفترة ذاتها العام الماضي، فيما تجاوز مجموع الفعاليات الثقافية والفنية للمدينتين هذا العام أكثر من 500 فعالية رئيسة، مقابل نحو 420 فعالية العام الماضي بنسبة نمو بلغت 19٪.

بعض البلدان التي مرت بحالة من عدم الاستقرار السياسي، وخاضت مجابهة مباشرة مع قوى الإرهاب والتطرف، شهدت على مدار العام الاتجاه التصاعدي نفسه، وأثرت 28 فعالية رئيسة الحراك الثقافي والفني في القاهرة، خلال ديسمبر الجاري، بخلاف 25 فعالية أخرى استضافتها مؤسسة «ساقية الصاوي»، وهي واحدة من مؤسسات عديدة تثري الساحة الثقافية والفنية للعاصمة المصرية، وتنفرد مؤسسة واحدة فقط في مدينة الإسكندرية، هي المكتبة الشهيرة التي تحمل اسمها، بـ12 فعالية ثقافية وفنية خلال هذا الشهر فقط، وهو الزخم نفسه الذي نلمسه في تونس، الدولة العربية التي عايشت ظروفاً مشابهة.

وعلى الرغم من تراجع عدد الفعاليات بنسب كبيرة في سورية والعراق واليمن وليبيا بطبيعة الحال، تأثراً بالحالة الأمنية، إلا أن إقامة ثُلة منها بالأساس تبقى بمثابة مقاومة من نوع آخر، فموسيقى الإبداع التي تعزف «سلاماً»، تعلو عند مبدعيها، على طبول حرب يدقها دعاة الإرهاب، وفيما يرسم التشكيليون بريشاتهم ألوان حياة، حتى إن عبرت عن صور القتل وواقع الدمار الذي يحيط بهم، لا يتورع الإرهابيون عن تخضيب أياديهم بدماء الأبرياء، والإفساد في الأرض، فيما لغة الفنون السامية في التواصل مع الشعوب، يقابلها لدى دعاة التطرف والأفكار الهدامة تأجيج روح استعداء الآخر.

حاضنات الإبداع

وإذا كان المنتج الثقافي والفني قائماً ومتوافراً، بنسب متفاوتة، بشكل قُطري فإن المهرجانات ومعارض الكتب والمنتديات والملتقيات العربية والدولية، تظل بمثابة مساحة أوسع تمنح حلولاً حقيقية، لتنشيط الحراك الإبداعي واستدعاء بيئة حاضنة للإبداع، تزداد أهميتها أمام حالات المد الإرهابي، التي تسعى كعادتها تاريخياً إلى وأد الإبداع.

شخصيات رسمية وثقافية وفنية عبرت عن رؤى مختلفة في ما يتعلق بآلية تحصين المجتمع ضد الإرهاب، ودعاوى الفكر المتطرف، والأفكار الهدامة، لكنهم اتفقوا على أن الثقافة العربية، وما ينضوي تحتها من فنون وفكر وإبداع، هي بمثابة حائط صد وخط دفاع حقيقي، يبقى في حال تدعيمه، قادراً على توفير ضمانة صمود المجتمع، وتجاوز موجاته، مهما طال أمدها.

ومع التأكيد على أهمية الابتعاد عن الفكر الموجه عموماً، وتوفير خيارات واسعة للمتلقي، رأى مثقفون أن التنشئة الاجتماعية السوية المتكئة على الثقافة والتربية الفنية والجمالية للفرد، هي أحد العوامل الأساسية في بناء مثقف واعٍ، يصعب التغرير به، وإيقاعه فريسة سهلة لأهواء دعاة الإرهاب والأفكار الهدامة، وهي عوامل تحسمها أدوار الأسرة والمؤسسة التعليمية والإعلام، إلى جانب الدور الأساسي للمؤسسات الثقافية المختلفة.

وفي حين يوحي المشهد العام بغزارة الأنشطة والفعاليات، فإن معيار الكيف يبقى نظرياً على المحك، ومدى قدرة تلك الفعاليات على التنوع، ليس لجهة استيعابها لحاجات شرائح متباينة من الجمهور، بل لتوفير بانوراما سخية من الفنون، لا تتقوقع معه «الثقافة العربية» وتبقى منفتحة على مختلف المعارف والفنون والآداب.

وهنا يبرز عاملان شديدا الصلة بالوعي الثقافي المجتمعي، هما عنصر التنشئة الثقافية والفنية من جهة، وهو الدور الذي تتقاسمه الأسرة والمؤسسة التعليمية بشكل رئيس، ودور الإعلام، على تعدد أنماطه ومنابره، وأثره في استيعاب زخم الأنشطة والفعاليات المتنوعة، وتوفير الدعم الإيجابي لحراكها، فضلاً عن دوره التنويري والنقدي، من جهة أخرى.

أولوية الثقافة والفنون لدى صانع القرار تجلت في العديد من القرارات والمواقف، ومنح صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة، المبدعين المتميزين جائزة الإمارات التقديرية، فيما رأت الملكة رانيا العبدالله عقيلة العاهل الأردني، والتي افتتحت قمة أبوظبي للإعلام الشهر الماضي، أن «الانتصار في المعركة الفكرية هو المفتاح الرئيس للانتصار في معركة طويلة وصعبة ضد المتطرفين، لكنها ضرورية من أجل مستقبل العالم العربي»، وهو ما أكده أيضاً الرئيس المصري عبدالفتاح السيسي، خلال لقاء عُقد قبل أيام قليلة، وامتد إلى نحو خمس ساعات ضم نخبة من الأدباء والمفكرين المصريين، ليعكس اللقاء أهمية الثقافة في الإعداد لبنية أساسية متطورة، لمجتمع عانى خلال السنوات الماضية هجمة إرهابية شرسة.

رئيس جمعية الإمارات لحقوق الإنسان، الأديب عبدالغفار حسين، يرى أن «المعركة في الأساس مع دعاة الأفكار الهدامة والمتطرفة، هي معركة بين الثقافة ونقيضها الجهل»، مضيفاً: «المثقف لا يمكن أن يكون إرهابياً، لأن الثقافة تنوير وفكر وانفتاح، وهي نقيض الأسس التي تشكل أي جماعة إرهابية».

وأضاف «لست مع من يرون أن مواجهة الإرهاب إنما تكون بالسلاح، ربما يصح ذلك إذا كنا بصدد مرحلة متأخرة، أو أخيرة، في حال تجاوز الأمر حائط الحماية الرئيس للمجتمع، وهو ثقافته وهويته، ولا أظن أن هذا الحائط المنيع عربياً، والذي صمد على مدار أكثر من 14 قرناً، قابل لذلك».

وتابع «ما يجب الالتفات إليه أنه إذا تم التعاطي مع التربية الثقافية والفنية بشكل علمي ممنهج لدى الناشئة، وبتعاون بين الأسرة والمؤسسة التعليمية، فإننا سنكون بصدد بيئة مستحيلة لنمو الإرهاب».

وشدد عبدالغفار على أن «ثقافة حقوق الإنسان أيضاً يجب أن تدخل في إطار استراتيجيات التنشئة الاجتماعية، وهي ثقافة ترسخ فكرة أن (الآخر) من حقه اعتناق ما يشاء من فكر أو معتقد، وله حقوق إنسانية مصونة، لا يبرر انتهاكها اختلافه مع (الأنا) في أي منحى».

فيما يرى وزير الثقافة السوري السابق، الدكتور رياض نعسان أغا، أن الثقافة العربية لن تنهزم في سورية، وأنها ستكون «المعول الأقوى في هدم صروح التمترس الواهنة لقوى الإرهاب ودعاة التطرف».

مسؤولية مشتركة

وليس بعيداً عن البلدان التي خبرت البربرية المعاصرة للجماعات الإرهابية، تبرز التجربة البحرينية عبر استراتيجية وفكر واضحين، حينما راهنت على أولوية الثقافة والفنون في الحرب ضد الإرهاب، ولم تنتظر النامة عام 2018، المقرر أن يشهد تسلمها لقب عاصمة الثقافة الإسلامية، لتلتفت إلى ضرورة الاهتمام بالبنية الثقافية، بل بادرت بإطلاق مشروعات كبرى استوعبت قطاعات واسعة من مختلف شرائح المجتمع، خصوصاً الشباب، في نشاطاتها، وهو ما تؤكده وزيرة الثقافة البحرينية الشيخة مي آل خليفة، التي تشير إلى أن «الاهتمام بالثقافة والفنون أضحى قضية وجود، وخياراً حاسماً، ليس في سياق دحر الإرهاب فقط، بل أيضاً من أجل الحفاظ على ملامح الهوية الوطنية».

ورأت آل خليفة أن «هذه المسؤولية لا يمكن أن تكون في جعبة جهة رسمية وحيدة، ممثلة في وزارة الثقافة، أو حتى المؤسسات الأخرى المعنية بالثقافة والفنون، بل هي مسؤولية مجتمعية تتشارك فيها الأسرة والمؤسسات التعليمية، وكذلك أجهزة الإعلام المختلفة».

الأسرة والمؤسسات التعليمية والإعلام، هي الثالوث الذي مثل أضلاع مثلث، أشارت إلى جوهرية مسؤوليته عن الثقافة، معظم الآراء هنا، وحتى وزير الثقافة الإيراني الأسبق، عطاء الله مهاجراني، الذي تربطه علاقات وثيقة بالثقافة العربية، وحل متحدثاً رئيساً في محاضرة استضافتها دبي بعنوان تفاعل الثقافتين العربية والفارسية أخذاً وعطاء»، أشار إلى أن «أحد مكامن قوة الثقافة العربية، هو تغلغلها وارتباطها بالتنشئة الاجتماعية للفرد، ومن ثم المجتمع».



«البداية يجب أن تكون بنقاش مجتمعي حول أهمية الفنون، وحسم الجدل التاريخي حول بعضها، دون أن نستدعي إلى موائد حواراتنا المقولات التي أوصلت سابقينا إلى دائرة مفرغة»

سالم عبدالكريم

مقاييس مغلوطة

الموسيقار العراقي الدكتور سالم عبدالكريم، بدا محبطاً بصدد ما يتعلق بمستقبل الثقافة والإبداع الفني عموماً، والموسيقي منه خصوصاً، عازياً إحباطه إلى «استمرار غياب التنشئة الثقافية والفنية السليمة، وعدم تقدير ليس فقط دور الفنان العربي في مجتمعه، بل أيضاً قيمة نتاجه، وقدرته على التأثير ومن ثم التغيير الإيجابي في الفرد والمجتمع».

وأضاف «ما الذي يجعل قائداً عظيماً، مثل نابليون بونابرت، يعتبر الموسيقى هي الصوت الذي يخبرنا بأن الجنس البشري أعظم مما يعرف، وفي الوقت الذي نجد فيه الغرب يولي عناية فائقة للتربية الموسيقية، فإننا عربياً لانزال مترددين في اعتماد تدريسها ضمن المساقات الدراسية، وحتى إن تم ذلك فنصاب حصصها على محدوديته، عرضة دوماً للتقليص واستبداله بالمواد العلمية والأدبية؟!».

ورأى عبدالكريم أن «الإعلام ساهم في تكريس دور سلبي للمؤسسات التعليمية عموماً، بما فيها الجامعات أيضاً، والتي يندر أن تلتفت إلى أهمية الفنون، في الوقت الذي لاتزال فيه الأسرة العربية تربط بين نبوغ أبنائها في تحصيل العلوم، والمساقات الدراسية المعتمدة، باعتباره مؤشراً وحيداً للنبوغ».

وتابع «الراصد للساحة العربية يستطيع بسهولة الوقوف عند حقيقة، مؤداها أن زخم الفعاليات العربية كم يعوزه الكيف»، مشيراً إلى أن «البداية يجب أن تكون بنقاش مجتمعي حول أهمية الفنون، وحسم الجدل التاريخي حول بعضها، دون أن نستدعي إلى موائد حواراتنا المقولات ذاتها التي أوصلت سابقينا إلى دائرة مفرغة، وألا نغفل حقيقة أن القوى الظلامية في المجتمع تعكف على أن نظل نراوح مكاننا، عبر اختلاق قضايا خلافية، هي ليست كذلك في جوهرها».

المجتمع بمؤسساته المختلفة «هو المؤهل لحماية عرين الثقافة، من وجهة نظر رئيس مهرجان دبي السينمائي، عبدالحميد جمعة، مؤكداً أنه لا يمكن فصل دور الأسرة عن المؤسسة التعليمية، وكذلك المؤسسات المعنية بالنشاط الثقافي والفني، بغض النظر عن تصنيفها، بين رسمية وشبه رسمية، ومؤسسات ذات نفع عام، وغيرها». وأضاف «التشجيع والمساندة اللذان حظيت بهما المرأة العربية، على سبيل المثال، أمدّا الساحة السينمائية بعدد من المخرجات المبدعات، وهو أمر ما كان ليتم بعيداً عن دعم ووعي بأهمية مشاركة المرأة التي هي نصف المجتمع، في الحراك الثقافي والفني، وهو حراك ارتبط في جانب منه ببيئة تعليمية محفزة على الإبداع، خصوصاً في مرحلة الدراسة الجامعية».

ورأى جمعة أن كل ما سبق كان من الممكن أن يظل بمثابة حالات محدودة، تتطور في نطاقات ضيقة، لولا الدور الإيجابي للإعلام، وتسليطه الضوء على نماذج إبداعية شكلت إلهاماً لأخريات، ما يعني أننا لا يمكن أن نفصل بين أدوار البيئة الاجتماعية ممثلة في الأسرة، ودور المؤسسة التعليمية، وكذلك الدور الذي تلعبه وسائل الإعلام المختلفة، في دعم الحراك الثقافي والفني في المجتمع.

5000
فعالية ثقافية وفنية، تثري عاصمة الثقافة الإسلامية الشارقة في 2014.

٪37.1
ارتفاعاً في عدد الفعاليات الرئيسة بدبي، مقارنة بالعام الماضي.

٪52.4
ارتفاعاً في نسبة الفعاليات الرئيسة، التي شهدتها العاصمة الإماراتية أبوظبي هذا العام.